

أثر الجاليات العربية والبربرية على الحياة الاجتماعية في السودان الأوسط والغربي  
بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين / الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين

د . مسعود خالدي

جامعة 8ماي 1945 بقائمة .

المخلص :

إن تطور العلاقات بين بلدان المغرب وممالك جنوب الصحراء في العصر الوسيط ، أدى إلى إنتقال عدد كبير من المغربة إلى بلاد السودان أفرادا وجماعات ، فكان منهم التاجر والفقير وبعض من القبائل العربية والبربرية. إن أثرهم على الحياة الإجتماعية في المنطقة كان واضحا . فقد تغيرت معظم العادات والتقاليد السودانية، وانتشر بدلها العادات والتقاليد الاجتماعية المغربية . كما تغيرت بعض مظاهر الحياة في المأكل والملبس وتقاليد الأسرة مثل الزواج والاحتفال بالمناسبات الدينية. ورغم ذلك فشعوب السودان الغربي والأوسط في ممالك مالي وسنغاي وكانم برنو حافظت على بعض المظاهر الإجتماعية المحلية مثل السحر وبعض التقاليد المنافية للشريعة الإسلامية.

Résumé :

Le développement des relations entre les pays des royaumes du Maghreb et l'Afrique subsaharienne au Moyen-Age, a conduit à transférer un grand nombre de Maghrebins au soudan occidental . Leur impact sur la vie sociale dans la région était clair. Il a changé la plupart des coutumes et des traditions soudanaises, répandant à leur place les coutumes et les traditions sociales du Maghreb. Certains aspects de la vie ont changé dans la nourriture, les vêtements et les traditions familiales telles que le mariage et la célébration d'événements religieux. Bien que quelques coutumes et traditions locales sont maintenues malgré qu'elles ne sont pas conformes avec les principes de l'Islam .

## المقدمة:

نتيجة للصلات الاقتصادية والثقافية بين بلدان المغرب وممالك إفريقيا جنوب الصحراء استقرت جالية عربية وبربرية في مدن وقرى السودان الأوسط والغربي منذ عهد المرابطين إلى عهد السعديين . كان لها أثر على جميع الجوانب الحياتية منها الجانب الاجتماعي . فكان لها أثر واضح في تغيير كثير من العادات والتقاليد السودانية، وأنتشر بدلها العادات والتقاليد الاجتماعية المغربية في المنطقة. فتغيرت بعض مظاهر الحياة في المأكل والملبس وتقاليد

الأسرة مثل الزواج والاحتفال بالمناسبات الدينية<sup>(1)</sup>.

هل كان هذا التأثير بمثابة غزو ثقافي كما تذكر الدراسات الغربية؟ أم هو عامل للتطور الحضاري للسكان؟ أم أن للشريعة الإسلامية دور في تغيير مظهر الحياة لسكان السودان الأوسط والغربي في مجال الطعام والأزياء والعمران؟ وإذا كان ذلك صحيحا كيف كان هذا التغيير ومجالاته المختلفة؟ وما هو مصير العادات والتقاليد الوثنية المحلية؟ هل كان مآلها الزوال أم استمرت وتأقلمت مع الوضع الجديد والمتمثل في إنتشار الإسلام؟

رغم صعوبة الموضوع لقلة الدراسات الحديثة وقلة المعلومات حوله في المصادر العربية والإسلامية، فإننا نحاول الإجابة على هذه التساؤلات من خلال هذا المقال التاريخي معتمدين على مجموعة من المصادر العربية والمراجع والدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع.

## 1-المأكل:

أدخل العرب والبربر إلى بلاد السودان مأكولات عديدة تصنع أساسا من القمح مثل الكاكي والكولس والجنجيسي والجوسا والكسكسي وكثير من ألون الأطعمة الأخرى<sup>(2)</sup>. وعندما دخل المرابطون إلى غانة بقيادة أبو بكر بن عمر، حيث أقاموا في المنطقة مدة طويلة دامت أكثر من عشرين سنة "كانوا يعتمدون في غذائهم على ألبان الإبل ولحومها بالإضافة إلى لحم الغنم والأبقار التي يشترونها من تجار القوافل، وكذلك القمح والذرة والتمر والزبيب والعسل<sup>(3)</sup>. فقبائل

<sup>(1)</sup> – أمطيرسعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين العاشر والحادي عشر

للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي) – ط1. دار الكتب الوطنية – بنغازي ليبيا 2005م. ص367

<sup>(2)</sup> – أحمد محمد كاني: مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700م- 1700م . مجلة البحوث التاريخية-مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية-طرابلس . السنة الثالثة –العدد الأول – يناير 1981. ص25.

<sup>(3)</sup> – عبلة محمد سلطان: العناصر المغاربية في السودان الغربي-دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي-رسالة دكتوراه-مركز البحوث والدراسات الإفريقية- جامعة القاهرة -1999- ص196.

الصحراء لا يعرفون حرثاً أو زرعاً والخبز فكانت عيشتهم من اللحم واللبن، ويذكر البكري أن أحدهم ما رأى خبزاً ولا أكله إلا بمرور التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم إياه<sup>(1)</sup>. وكانت الجالية المغاربية في غانة تعتمد في أكلها على الأسماك ولحوم أنواع من الماشية بالإضافة إلى التمر الذي يأتيهم مع تجار ورجلان وسجل ماسة<sup>(2)</sup>. وكانت هذه المأكولات شائعة في بلاد المغرب خاصة في عهد الرستميين، فقد كان الفقراء يتناولون الخبز والزيت ويسكبون شيء من دقيق الشعير، بالزيت فيأكلونه بخبزة وسمن وقليل من الملح<sup>(3)</sup>. أما في عهد مملكة مالي كان أغلب طعام سكانها من الذرة بسبب قلة القمح وارتفاع ثمنه فالعشرين مدا منه يساوي مثقالاً من الذهب<sup>(4)</sup>، كما كانوا يعتمدون على الأرز في أكلهم لكثرة زراعته ببلادهم. ومن غذائهم "الفوني" وهي عبارة عن حبوب صغيرة تشبه الخردل ولونها أبيض تطحن ويعمل بها الخبز كما يصنع منه العصيدة التي أشار إليها ابن بطوطة<sup>(5)</sup>. ويكثر بمالي الفواكه والخضروات منها اللوبيا والقرع والباذنجان واللفت، ونوع يشبه القلقاش سمي القافي وهو عبارة عن عروق دقاق وتدق كفي الأرض فتترك حتى تصير غلاظاً<sup>(6)</sup>. وعرف أهل السودان في عهد مملكة مالي عدة مأكولات أخرى منها الملوخية، والبوسة، والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان والكربت بالإضافة إلى الحنطة والأرز والفوني وهو حب مزغب يدرس فيخرج عنه حب صغير أبيض يغسل ثم يطحن<sup>(7)</sup>. ورغم وفرة الطعام ببلاد السودان إلا أنه كان لا يروق للأجانب، فابن بطوطة لم يستطع أكل أحد الأطعمة لعدم جودتها ويقول عندما عزمه أحد السكان المحليين فقال عندما لم يعجبه الطعام "ألهذا دعانا الأسود"<sup>(1)</sup>.

(1) -البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك). مكتبة أمريكا والمشرق. (د ط)

(ط) . باريس 1965. ص162، جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرن الثالث والرابع الهجريين: 9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1992 -ص325.

(2) - الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) تحقيق وتعليق

إسماعيل العربي -ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر-1983-ص4، 50.

(3) - ابن الصغير المالكى: أخبار الأئمة الرستميين -تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي (د ط) . بيروت -1986-ص332.

(4) - ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (المعروف ب: تحفة النظار في غرائب الأمصار) دار بيروت للطباعة والنشر - (د ط) .

بيروت -1400هـ/1980م ص661، إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية -ص136.

(5) - ابن بطوطة: المصدر نفسه . 661 ، القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الإنشاء-تحقيق وتعليق نبيل خالد

الخطيب -دار الكتب العلمية- ط1 . بيروت . لبنان- 1407هـ/1987م.. ج5 -ص277.

(6) - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. الجزء الرابع. تحقيق عبد القادر خويصات وعصام مصطفى هزايمة

ويوسف بن ياسين مركز زايد للتراث التاريخي بالإمارات العربية المتحدة 2001 - ج4 - ص65

(7) - عبلة محمد سلطان: المرجع السابق -ص200.

وتأثر أهل السودان بمأكولات الجاليات العربية والبربرية التي سكنت بلادهم فأصبحوا يعرفونها ويستعملونها، وكان الكسكسي من الأكلات المغاربية المشهورة وهي الغذاء المفضل لدى الفئات المترفة منهم المملوك، ومن مأكولاتهم لحم الغنم المطبوخ أو المشوي أو الملفوف في شرائح العجين المتناهي الدقة ومعه أصناف من الأطعمة منها دقيق القمح الذي كان يحمله جنكي حزيم إلى اسمه الإسقيا محمد<sup>(2)</sup>. وكان غذاء غانة يختلف من منطقة لأخرى ويتشكل من أنواع عديدة من الأطعمة، كان سكانها يعتمدون على الفاكهة والخضروات ، كما أصبح عندهم بساتين تنتج فاكهة متنوعة منها الجمير ويوجد منه نوع يسمى زوبيزور يشبه فرول الخروب، وفاكهة أخرى تسمى فوني، والليمون وطعمه طعم الكمثري وكل هذه الأنواع لم تكن معروفة في السودان حتى نهاية القرن الخامس الهجري، بل كانوا يعتمدون على البحر في طعامهم والبن وهو نوع من الحبوب يجلب إليهم<sup>(3)</sup>. وعرف سكان السودان الغربي من الجالية المغاربية أكل الضأن والطيور ومنها الدجاج والأرز والبيض<sup>(4)</sup>.

كما عرفوا كذلك أنواع من الحلويات منها القطائف<sup>(5)</sup>، والمربي<sup>(6)</sup> وأجادوا أنواع عديدة من المشروبات نقلوها عن العرب والبربر ويحصلون عليها من النباتات مثل "عرق البلح"<sup>(7)</sup>. وأدخل المغاربة تقليدا فيما يخص وجبات الطعام اليومية مثل تناول طعام العشاء، فقد كانوا يتناولون اللبن مع بعض الفطائر وفي الصباح تتناول بعض العائلات الأطعمة الدسمة واللحوم والحساء وهذا التقليد لم يعرف في السابق في تلك البلاد<sup>(8)</sup>.

---

(1) - ابن بطوطة: المصدر السابق -ص681، عبلة محمد سلطان: المرجع نفسه -ص199.

(2) - الهادي مبروك الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء (من نهاية القرن حتى نهاية القرن 18م) -الدار المصرية اللبنانية . القاهرة . ط1- 1999-ص28.

(3) - البكري: المصدر السابق -ص181، محمد عبلة سلطان: المصدر السابق -ص200.

(4) - القلقشندي: المصدر السابق ، ج5 -ص276-277.

(5) - جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق -ص326.

- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار -نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد جامعة الاسكندرية. ( د ط ) - مصر 1958 م -ص116.

(6) - الفشتالي:- مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفاء . تحقيق عبد الله كنون -المطبعة المهديّة . ( د ط ) . الرباط . 1384 هـ / 1964 م . ص237.

(7) - مادهوربا نيكار: الوثنية والإسلام-ترجمة أحمد فؤاد بليغ-المجلس الأعلى للثقافة( د ط ) القاهرة 1995. ص423

(8) - محمد

الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي- وزارة الإرشاد والثقافة والإعلام . دار الرشيد . بغداد . 1982-ص612، الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص32.

وكان السكان يتناولون ثلاث وجبات في اليوم الأولى في الصباح وفي وجبته الإفطار ويتمثل في الحساء واللحم المشوي مع الخبز الطري والزبدة والعسل ثم وجبة الغذاء وهي عادة ما تكون دسمة، ولا يختلف طعام العشاء عن الغذاء من حيث نوعية الطعام<sup>(1)</sup>.

## 2-الملبس:

من المظاهر الإسلامية التي تأثر بها سكان السودان الأوسط والغربي بالجاليات العربية والبربر الملابس. فقد كان الناس عراة، لا يغتسلون، فأصبحوا بعد الإسلام يتأنقون بملابسهم من أجل الصلاة، وشرعوا يغتسلون يوميا لأن الشريعة تطلب منهم الطهارة بل أنهم أصبحوا يباهون موطنهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة<sup>(2)</sup>.

ففي عهد مملكة غانة كان التأثير الإسلامي واضح في أزياء الملوك والعامّة يقول الإدريسي: "لباس أهل غانة عادة اتخاذ الأرز والفوط والأكسية كل واحد على قدر همته"<sup>(3)</sup>.

فقد كان ملوك غانة يلبسون العمائم الرفيعة<sup>(4)</sup>، والسرراويل والنعال، وكان تأنقهم يتجلى خاصة في يوم العيد<sup>(5)</sup>. ويذكر ابن سعيد "والغالب على أهل السودان والتكرور وغيرهم لبس الجلودومن خالط البيض وتخصص اتخذ لباسه من القطن والصوف"<sup>(6)</sup>.

أما زي سائر الناس أو العامّة يقول عنهم البكري أنهم كانوا يلبسون "ملاحف القطن والحريير والديباج على قدر أحوالهم"<sup>(7)</sup> ويتفق الملك مع رعاياه في مظهر واحد هو حلق الشعر<sup>(8)</sup>. وبدخول المرابطين إلى غانة انتقلت بعض الأزياء إلى المنطقة أشهرها من القبائل الصنهاجية في منطقة الصحراء، يذكر البكري أنهم كانوا يتلثمون بعمائمهم، ولا يلبسون قميصا إنما يستحسنون ثيابهم وأضاف البكري "جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حين لا يبدو منه إلا محاجر عينية"<sup>(9)</sup>. ورغم أكثرية سكان غانة لم يستخدموا اللثام مثل التكرور إلا أن بعض أهل ولاته كانوا يتلثمون<sup>(10)</sup>.

(1) - السعدي: تاريخ السودان -وقف على طبع هوداس-مكتبة أمريكا والمشرق -باريس . 1908 ص 100، الهادي مبروك الدالي: المرجع نفسه -ص32.

(2) - نعيم قدام: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية -ط3-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - (د ط) الجزائر-1974- ص173.

(3) - الإدريسي: المصدر السابق، ج 1-ص39.

(4) -البكري: المصدر السابق -ص175.

(5) -إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية -الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. (د ط) -القاهرة - 1390هـ/1970م -ص79.

(6) - ابن سعيد: كتاب الجغرافيا -تحقيق اسماعيل الغربي - تحقيق اسماعيل العربي . ديوان المطبوعات الجامعية . ط 1 . الجزائر 1982 -ص91.

(7) - البكري: المصدر السابق -ص175.

(8) - البكري: المصدر نفسه -ص74.

(9) - نفسه . ص170، جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق -ص 332

(10) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق . ج 2-ص536، عبلة محمد سلطان: المرجع السابق -ص203.

وعرف سكان التكرور في عهد غانة القداوير المصنوعة بالصوف من تجار سجماسة والعمائم الصوفية من أهل السوس ودرعة<sup>(1)</sup>.

أما أهل مالي ينقسمون إلى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة، والطبقة العريضة هي طبقة الشعب أو العامة ملابسها تشبه الزي العربي المغربي، وهي عبارة عن عائم تحنك مثل العرب وجبان ودراربع بدون تفريج أو تخريج، وقماش ملابسهم لونها أبيض من القطن الذي يكثر عندهم، ولديهم مهارة في نسيج الملابس تخرج في غاية الدقة وتعرف لديهم بالكاميصا أو القميص<sup>(2)</sup>.

ويلبس الفقهاء في مالي عمامة على نسق العمامة الشرقية مع ترك عذبة تتدلي على ظهره<sup>(3)</sup>.  
ويذكر القلقشندي أن رجال الجيش خاصة الفرسان كانوا يتميزون بلباسهم الخاص منها الأساور الذهبية والسرراويل المتعفة<sup>(4)</sup>.

ويرجع الفضل إلى المغاربة إدخال بعض الصناعات الجلدية وأغطية الرأس وأزياء معينة من الملابس، كما يرجع لهم الفضل في تعريف السكان أنواع من النعال كانت تستورد إلى تنبكتو وغيرها من مدن السودان الغربي، وكانت الطبقات الراقية هي التي كانت تستعملها<sup>(5)</sup>.

وفي عهد مملكة سنغاي، كان التأثير الإسلامي واضح على السكان بحيث قلت ظاهرة العري وبقت محصورة في المناطق البعيدة والغابية فقط، فكان الناس كلهم يرتدون الألبسة ولكن كل منهم كان يلبس حسب قدرته<sup>(6)</sup>.

وأشار حسن الوزان إلى ذلك بأن سكان المناطق التي زارها كانوا يرتدون لباسا حسنا، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به رؤوسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض<sup>(7)</sup>.  
ومن الأصناف التي كان سكان سنغاي يستوردونها الأقمشة الحريرية المطرزة الغالية الثمن، وهذه الأقمشة تستخدمها الطبقات العليا، ويصف تاريخ الفتاش كيف كان القوم يلبسون، ويقول أن "بلمع"

(1) - الإدريسي: المصدر السابق-ص33، القلقشندي: المصدر السابق، ج 5-ص286.

- عبلة محمد سلطان: المرجع السابق-ص203-204.

(2) -، القلقشندي: المصدر نفسه. ج 4-ص286، العمري: المصدر السابق-ج 4-ص64، الهادي مبروك الدالي:

مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط1-دار المتلقى للطباعة والنشر-بيروت-لبنان-1993م-ص84.

(3) - إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية-ص164.

(4) - القلقشندي: المصدر السابق، ج 5-ص287.

(5) - محمد كاني: المرجع السابق. ص-25.

(6) - عبد القادر زبادية: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية -ط3-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- (دط) . الجزائر. 1974-ص132.

(7) - حسن الوزان:المصدر السابق، ج 2-ص163.

كان يرتدي درعا من الحديد فوقه قميص أخضر مصنوع في سوس وسيفه معلق في عنقه ويتمنطق بحزام<sup>(1)</sup>.

ويذكر كعت في الفتاش كذلك أن الإسقيا الحاج حين خلع من الحكم كان له حوالي عشرين كيسا من الألبسة، في حين كان يظهر القضاة والعلماء والرؤساء في حلل فضفاضة زاهية الألوان، ويلبسون في أرجلهم صناديل ملونة<sup>(2)</sup>.

كما أن الإسقيا داوود كان يرتدي ملابس سوسية عالية الجودة منها قميص سوسى نسبة إلى السوس الأقصى، وكان هذا القميص غالبا ولونه أزرق، وكذلك قميص سوسى آخر ولونه أخضر<sup>(3)</sup>، كما كان عبيده يلبسون كذلك ملابس حريريته<sup>(4)</sup>. وكان سلاطين سنغاي يضعون على رؤسهم كرازين تشبه العمامة. فعندما تولى الإسقيا إسحاق الحكم استطاع أن يتحكم في البلاد وسيطر عليها ويلاحق ملوك أعدائه. فقبض على أحد معارضيه اسمه بكر بن الفق دنك" وعندما مثل بين يديه أراد إهانته فقال إسقيا إسحاق لرجاله: "هاتوا كرزي فجئني به فقال له خذه وأستر به هذا الشيب<sup>(5)</sup>. ومن الألبسة المغربية التي دخلت بلاد السودان البرانس وهي الملابس التي كانت سائدة بالمغرب يذكر المقدسي أن سكان البربر يلبسون البرانس منها البيضاء والسوداء، وهي ألبسة صوفية تستعمل أثناء الشتاء للوقاية من المطر والبرد<sup>(6)</sup>، وأشتهر الفقهاء بإرتداء هذا اللباس فقد أورد السعدي قصة الفقيه فودي محمد ساقو<sup>(7)</sup>، الذي كان يصلي على برنسه

خوفا من اللصوص وذكر كعت في الفتاش أن شيخ الإسلام الفقيه محمد بغيغ الونكري أشتهر بلبس البرنوس خوفا من أن يسرق وكان زي الشرفاء والعامّة عبارة عن جلابيب طويلة وعمائم وشعر يصل إلى شحمة الأذنين إقتداء بالرسول-صلى الله عليه وسلم-<sup>(8)</sup>.

والرجال في سنغاي يرتدون كذلك الملف والقميص والقفاطين المصنوعة من كتان والحريير والسرراويل الكبيرة والعمائم والبرانس<sup>(9)</sup>، ويذكر حسن الوزان عنهم ما يلي "وأحيانا يرتدي العامة فوطة ضيقة

(1) - كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس - طبع هوداس ودولافوس . باريس . 1964 -

ص128، مادهو باننيكار: المرجع السابق -ص421.

(2) - كعت: المصدر نفسه-ص170، 171، عبد القادر زبايدية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين 1493-1591،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . (د ط) - الجزائر -1971-ص132.

(3) - نفسه -ص115.

(4) -، أمطير سعد غيث: المرجع السابق -ص372.

(5) - السعدي: المصدر السابق -ص129، الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري -ص34.

(6) - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . مطبعة بريل . ط2 . طبع ليدن . 1906 م -ص239.

(7) - السعدي: المصدر السابق -ص216.

(8) - كعت : المصدر السابق - ص171، الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص335.

(9) - كعت: المصدر نفسه-ص144.

مصنوعة من الصوف الخشن ويضع الواحد منهم فوق رأسه قماشة سوداء ملفوفة حول وجهه كالعمامة<sup>(1)</sup>.

أما بالنسبة للنساء فقد انتشر بينهن لبس الحجاب فقد أورد الرحالة الأوربي مارمول أن نساء تنبكتو وولاته متحجبات ملثمات باستثناء الإيماء اللاتي يعين الأكل<sup>(2)</sup>.

وكان نساء جني يرتدين اللثام المصنوع من القطن وباللون الأزرق والأسود<sup>(3)</sup>.

واشتهرت مملكة برنو بصناعة الثياب أو المنسوجات الغالية حتى كانت تستخدم كعملة لتبادل السلع، واشتهرت هذه الثياب باسم "دندي"<sup>(4)</sup>. وكان فرسان برنو يلبسون القمصان المزودة، والخوذ الحديدية، كما كانوا يتلثمون فعن العمري والقلقشندي أن: عساكرهم يتلثمون<sup>(5)</sup>.

وكانت الملابس في كانم - برنو أكثر إتقانا وتقدر مكانة كبراء القوم بعدد ما يرتدونه من جلايب، والشائع أن يرتدي الرجل إثني عشر جلبابا الواحد منها فوق الآخر، ولذلك لا بد أنه معرفل للحركة وغير مريح خاصة عندما تشتد الحرارة، ومشاع بين المسلمين أيضا إرتداء الطاقية أو العمامة أما نساء برنو فكن يلبسن العمامة الطويلة بترك ذيلها يجرجر خلفها ويقع على كتفهن شالا زاهي الألوان<sup>(6)</sup>.

وكان ملوك الزغاوة يتأنقون في إرتداء الملابس، فكانوا يلبسون سراويل من صفوف رقيقة والإنشاح عليها بالثياب الرقيقة من الصوف والأسماط والحريير السوسي والديباج الرفيع<sup>(7)</sup>. وكان السكان يتشبهون في لباسهم بأهل المغرب يقول القلقشندي "ري لباسهم عمائم بحنك مثل عرب"<sup>(8)</sup>. واشتهر عندهم الحريير السوسي أي المجلوب من مدينة سوسة التونسية وكان لباس الملوك<sup>(9)</sup>.

نستنتج مما ذكر أن إرتداء الملابس في بلاد السودان، أصبحت ظاهرة حضارية وانتشرت بين سكانه كثير من الأزياء المغاربية من الأقمصة والسراويل والبرانس والألبسة الحيرية والقطنية، وهو دليل على التقدم الحضاري الذي وصلوه، ويقضي على الصورة السائدة في العالم بأن الأفارقة هم همج عراة

(1) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق -ص67.

(2) - مارمول: إفريقيا - الجزء الثالث-ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، عمار زبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق،

أحمد بنجلون، دار النشر للمعرفة - الرباط. ( د ت)، ج 3-ص198.

(3) - مارمول: المرجع نفسه . ج 3. ص 198.

(4) - إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية برنو الإسلامية -ص165.

(5) - العمري : المصدر السابق - ج 4 - ص 52 ، القلقشندي- المصدر السابق -ج 5- 281.

(6) - ماد هوبا نيكار: المصدر السابق -ص422-423.

(7) - حسن بن محمد الوزان :المصدر السابق - ج 2 - ص 160 إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية برنو الإسلامية -

مطابع الهيئة المصرية العامة . ( د ط ) . القاهرة . 1975 -ص448.

(8) - القلقشندي: المصدر السابق ، ج 5-ص287.

(9) - كعبت: المصدر السابق -ص115، مفتاح يونس رياض: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم -برنو، القرن السابع

والعاشر الهجريين/الثالث السادس عشر الميلاديين رسالة دكتوراه، قسم التاريخ -معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة 2004/2005-ص163.



وهي صورة غير صحيحة، ولا تستند إلى دراسات دقيقة. وللجالية العربية والبربرية التي سكنت المنطقة دور كبير في نقل الأنواع المختلفة للألبسة إلى السودان الأوسط والغربي، وكان للعامل الديني أثر كبير في إرتداء الثياب والتأنق في لبسها.

### 3-المسكن:

تطور بناء المساكن في السودان الأوسط والغربي بمرور الزمن، ففي بداية الأمر كانت المنازل تبني من أغصان الأشجار وجلود الحيوانات على هيئة خيام، ثم تطور البناء فصار بعضه من الطين ومستفرك بالتبن وبعضه الآخر مبني بالحجر المركب والجبس<sup>(1)</sup>.

فشيدت الدور ومقر الحكام والمساجد والمنارات العلمية، وكان البناء يختلف في تطوره من مدينة إلى أخرى، فمدينة أودغست كانت بناياتها حسنة ومنازلها رفيعة مبنية بالطين، فقصر السلطان بناؤه جميل له أبراج لمراقبة المدينة<sup>(2)</sup>، وكانت مدينة "أقدز" مبنية في بداية أمرها من أغصان الأشجار التي يضعون عليها الحصر والجلود ونحوه ثم تطور البناء بالأحجار والطين، وبدأت بعد ذلك تظهر منها الهندسة المعمارية الإسلامية المتمثلة في الأقواس والنقش على الطراز الإسلامي وعلى ذلك المسجد الكبير<sup>(3)</sup>.

وفي مدينة تنبكت تطور بها البناء حتى أصبحت تضاهي المدن الإسلامية الكبرى في شهرتها فقد تحول بها البناء من الأعشاب والأغصان إلى البناء بالأحجار والطين، وللمغاربة التي سكنوها دور كبير في هذا التطور.

فبفضلهم تغير أسلوب البناء في كل السودان الغربي والأوسط، واستفاد سكان المنطقة من ذلك، فقد أدخلت مواد بناء جديدة مثل الآجر والبناء بالحجارة، وأصبحت المنازل والمساجد تزين بكتابة الآيات القرآنية على جدرانها واستعمال الزجاج الملون والنقش.

وظهر ذلك في قصور الملوك والأثرياء والميسورين من السكان وتجلي كذلك أثر الإسلام والمسلمين الذين أقاموا في المنطقة أن خصص في كل منزل جناح خاص بالضيوف، كما أصبحت المدن الإسلامية السودانية تمتاز دوماً بالنظافة. ونظمت من حيث تخطيطها لتلائم حياة الطوائف الاجتماعية وفقاً للأغراض الاقتصادية، فبنيت المخازن والمتاجر والحوانيت حول المسجد<sup>(4)</sup>.

ولم يكن سكان السودان يجهلون فن البناء بالحجارة، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع وكانت تسود بلادهم المنازل المربعة المبنية من اللبن وأسقفها مسطحة وفتحاتها قليلة وضيقة،

(1) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق ، ج 2-ص165، أمطيرسعد غيث: المرجع السابق -ص374.

(2) - مجهول: الاستبصار-ص216، الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص26.

(3) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق ، ج 2-ص166-178، الهادي مبروك الدالي: المرجع نفسه -ص26.

(4) - حسن الوزان - المصدر نفسه ، ج 2-ص165 ، نعيم قداح: المرجع السابق -ص148.

وهناك الأكواخ المبنية من النباتات والأعشاب وهي أقدم من الأولى وبعض حوائطها تكون من التراب الصلب، والملاحظ أن هذه البيوت تتلاءم مع عوامل المناخ السائدة في المنطقة<sup>(1)</sup>.

وأورد كل من العمري والقلقشندي وصفا للمساكن التي كانت منتشرة في مالي قبل دخول المهندس أبو إسحاق الساحلي. فكانت المباني مبنية من الطين اللبني الذي يعرف عندهم "بالباستا" ومما جاء عندهما "مبانها -أي مالي- متفرقة وتبني بالباستا وهي أن تبني بالطين بقدر ثلثي ذراع ثم يترك حتى يجف، ثم يبني عليه مثله، وكذلك حتى ينتهي وسقوفها بالخشب والقصب، وغالبا قباب أو جملونات كالأقباء وأرضها تراب مرمّل، وليس لها نور"<sup>(2)</sup>.

وفي عهد مملكة غانة يذكر البكري أنه رأى فيما عدا القصر كانت البيوت الوحيدة التي تبني بالحجارة هي بيوت التجار الأجانب، وهي بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحوائط، فيقول: "ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيم بالحجارة وخشب السبط وللملك قصر وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور وحول مدينة الملك قبابا وغابات"<sup>(3)</sup>.

أما الإدريسي فيذكر أن: "ملك غانة سكن قصر محصن مبني بالحجارة له نوافذ زجاجية وبداخله نقوش وتزيينات"<sup>(4)</sup>.

ودلت الحفريات التي قام بها كل من توماس وموني سنة 1371هـ/ 1951م على وجود بنايات جميلة في مدينة إسلامية مخططة أحسن تخطيط على طول اثنين من الكيلومترات وسكنها أكثر من ثلاثين ألف نسمة، لها بنايات من طابقين مصنوعة من حجارة الجبس وجدرانها منقوشة بـجس أصفر<sup>(5)</sup>، وتدل هذه الحفريات على التطور الكبير الذي شهدته العمارة والمسكن في مواد البناء وأسلوبه.

وكان ملوك ونبلاء وقواد مملكة غانة يستخدمون البنائين من المغرب ليقوموا لهم القصور والبيوت على الطراز المغربي الذي كان سائدا في القسم الغربي من مدينة كومي صالح أو غانة عاصمة المملكة<sup>(6)</sup>.

وفي مملكة مالي تطور بناء المساكن في معظم المدن السودانية بفضل الجاليات العربية والبربرية، فقد نقلوا بعض أساليب البناء منها أسلوب البناء بالباستا من العرب، وهي طريقة بناء أهل دمشق<sup>(7)</sup>.

(1) - أحمد سويلم العمري: الإفريقيون والعرب. مكتبة الأنجلو. المصرية. القاهرة. 1967. -ص39.

(2) - العمري: المصدر السابق، - ج4- ص61، القلقشندي: المصدر السابق، ج5- ص272.

(3) - البكري: المصدر السابق -ص175.

(4) - الإدريسي: المصدر السابق -ص23.

(5) - Basil Davidson : l'Afrique ancienne T1-francais maspero- Paris-1973, p 95.

(6) - نعيم قداح: المرجع السابق -ص146..

(7) - عبله محمد سلطان: المرجع السابق -ص208.

كما تأثر سكان مالي بالطراز المعماري المغربي والأندلسي بعد دخول المهندس المعماري أبو اسحاق الساحلي المعروف بالطويجين، وكان له الفضل الكبير في إدخال طرق جديدة للبناء، فلديه العديد من القصور المبنية من الكلس والأصباغ الزاهية، كما بنيت كذلك بالأجر، وإدخال نظام القباب، وجعل مساكن الملك بعيدة عن مساكن الأهالي ويحيط بها سورا واحدا، وهو الذي أشرف على عمارة مساجد جاو وتنبكت، وبني قاعة الاجتماعات بقصر منسى موسى في مالي من الحجر والجبس وزخرفها بالخشب لمطعم بالذهب والفضة وأدخل نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل<sup>(1)</sup>.

ومن المعلوم أن أبو اسحق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجين دخل بلاد السودان مع الملك منسى موسى بعد عودته من الحج، وتعرف عليه هذا الأخير بمكة المكرمة ودعاه إلى البلاد<sup>(2)</sup>.

وتولى الساحلي بعد ذلك الإشراف على بناء مساجد جاو وتنبكت، وانتشر بعده الطراز المعماري المغربي والأندلسي في كامل أنحاء السودان<sup>(3)</sup>. كما تولى بناء دار السلطان منسى موسى بمدينة تنبكت<sup>(4)</sup> تنبكت<sup>(4)</sup> من الحجر والجبس وزخرفها بالخشب المطعم بالذهب والفضة فجاءت تحفة فنية رائعة<sup>(5)</sup>.

ويذكر كعت التنبكتي أن السلطان منسى موسى صاحب مالي قد أنشأ أثناء سفره إلى الحج مسجد في كل مدينة يمر بها<sup>(6)</sup>.

وساهم بجانب السواحي المهندس إدريس المراكشي على بناء مسجد مدينة جني المشهورة وهو نموذج من نماذج الفن المغربي في بلاد السودان خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي<sup>(7)</sup>.

وفي مملكة سنغاي أصبح الطابع المغربي الأندلسي هو السائد في بناء المنازل والسكنات، والتميز بإدخال نظام القباب، ومساكن الملك بعيدة عن مساكن الأهالي والمحيطه بسور واحد<sup>(8)</sup>.

وأخذت البيوت خلال هذه الفترة الشكل المربع وجعل سور من الطوب اللبني قليل الإرتفاع كإطار للبيت من أعلى، وهذا السور كانت تتخلله فتحات متساوية، لئلا تستقر المياه على السطح، وأصبح من المألوف أن يكون للبيت فناء تتوسطه بركة ماء، تلك كانت ديار السادة ثم عم استعماله في البلاد

(1) - ابن بطوطة : المصدر السابق-ص694، السعدي: المصدر السابق -ص8، الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي

الإسلامية -ص85، إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية برنو الإسلامية -ص154.

(2) - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون -المعروف بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) -دار الكتب العلمية - ط1 بيروت-

لبنان -1413هـ/1992م، ج6 -ص238، السعدي: المصدر نفسه -ص8

(3) - السعدي: المصدر السابق -ص7

(4) - ابن بطوطة: المصدر السابق -ص495، القلقشندي: المصدر السابق ، ج5 -ص283.

(5) - ابن بطوطة: المصدر نفسه ، ج2-ص204، محمد عبد العال: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجته الشهيرة .

(د ط) . جامعة القاهرة -1991ص-26.

(6) - كعت: المصدر السابق -ص32

(7) - نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا -ص147.

(8) - الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية -ص85.

ليشمل ديار العامة<sup>(1)</sup>. ورغم تقدم وتطور أسلوب البناء إلا أن الرحالة حسن الوزان لاحظ أن أغلب أبنية القرى والمدن بها الأكواخ وهي بيوت الفقراء المبنية من الأخصاص وكانت تشكل أكثر من نصف مدينة تنبكت سنة 916هـ/1510م.

وكان أثر الجالية والبربرية والعربية واضح على السكان المحليين في معظم مناطق مملكة سنغاي، حيث تميزوا بكثرة الترحال والتنقل مثل العرب والبربر وغلبت مساكن الخيام في نمط معيشة بعضهم كما سكنوا في القوارب التي كانوا يمتلكونها ولذا كانوا يخرجونها خلال الليل من النيل (نهر النيجر) ثم يبيتون فيها.

أما قصور ملوك ومساجد مملكة سنغاي تمتاز باتساعها واحتوائها على عدة مداخل ونوافذ كما كانت توجد بها الأقواس<sup>(2)</sup>. وخلال هذه الفترة أشتهر المهندس المعماري محمد فادي الذي تعلم فن البناء في المغرب بتشديد المسجد الجامع في تنبكت<sup>(3)</sup>.

وفي مملكة كانم -برنو شاعت البيوت المبنية بالحجارة وكانت قصور سلاطينها ضخمة وبيوتها جيدة البناء، وبداخلها عدة أقواس عليها أبواب الغرف المحيطة بها فتجعلها ألطف حرا<sup>(4)</sup>.

أما عن التأثيث فقد أعتنى سكان السودان به منهم أهل مالي، حيث قاموا بتجميل بيوتهم وتزيينها بالنقوش وتأثيثها بالأقمشة المستوردة من المغرب، وكانوا يفرشون الأرض ويرتفع الفرش قليلا عنها بواسطة ألواح، وكانت المسطبة مطرزة، وقد يضع صاحب البيت فوقها سجادا طويلا أو جلد أحد الحيوانات، والحيطان مزينة ببعض التحف مثل أسنان الفيل، وبيض النعام وريشه، بالإضافة إلى كتابات الآيات القرآنية، أما التحف والأغطية المطرزة فهي مستوردة من المغرب في أغلب الأحيان<sup>(5)</sup>.

وخلاصة مما ذكر في مجال البناء، أن للجالية العربية والبربرية دور في إدخال أسلوب وطرق جديدة في بناء المساكن، ومواد بناء تستطيع التصدي لفعل الزمان مثل الحجارة والحبس. كما أدخلوا معهم نظام الأقواس والقباب وأصبح يحيط بال منازل سور كبير وكان أثر الشريعة الإسلامية واضح في المجال المعماري و امتاز البناء بالنظافة والاتساع، وخصصت بيوت للضيوف وزينت جدرانها بالآيات القرآنية وأسماء الله وفرشت الأرض بالحصر<sup>(6)</sup>.

#### 4. عادات الزواج في المجتمع السوداني:

كان الزواج في المجتمع الإفريقي قبل مجيء الإسلام في منطقة السودان الأوسط والغربي غير منظم، ويستند إلى مواريث فوضوية بعيدة عن التنظيم فليس للرجل والمرأة زوج معين بذاته، بل حياتهم أشبه بحياة حيواناتهم التي يرعونها، فالمرأة يجتمع عليها أكثر من رجل، وقد يصل إلى اثني عشر

(1) - عبلة محمد سلطان: المرجع السابق -ص209.

(2) - عبد القادر زبايدة: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين -ص131-132.

(3) - نعيم قداح: المرجع السابق -ص147.

(4) - مادهو بانيكار: المرجع السابق -ص427.

(5) - السعدي: المصدر السابق -ص205-206، الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص27.

(6) - محمد الغربي: المرجع السابق -ص630.

رجلا في كوخ واحد، والرجل يجتمع مع عدد من النساء، كما كانوا يتناكحون بغير صداق. وقد يتزوج الرجل المرأة للمتعة وهو زواج مبني على المصلحة<sup>(1)</sup>.

ومع انتشار الإسلام خاصة بعد القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي بدأت الشريعة الإسلامية تتغلغل شيئا فشيئا في المجتمع السوداني بفضل الأحكام الشرعية التي يصدرها رجال القضاء الإسلامي والذين كان أغلبهم من المغاربة<sup>(2)</sup>، وأصبح نظام الزواج وفق الشريعة الإسلامية ولو أنه لم يستطيع القضاء على بعض العادات الوثنية.

وقد تعجب ابن بطوطة من ذلك عند زيارته لمالي، ولاحظ وجود الإباحية سائدة بين الجنسين ويقول: "دخلت يوما على أبي محمد يند كان المسوفي الذي قدمنا في صحبته، فوجدته قاعدا على بساط في وسط داره سرير مظل عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة؟ فقال هي زوجتي، فقلت ما الرجل الذي معها فقال هو صاحبها! فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها. ولسن كنساء بلادكم. فعجبت لرعونته وانصرفت عنه.." <sup>(3)</sup>.

ويقول كذلك ابن بطوطة في موضع آخر: "دخلت يوما على القاضي إيواتن فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتهما أرتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل، وقال القاضي لم ترجع؟ إنها صاحبتى، فعجبت من شأنها فإنه من الفقهاء والحجاج وأخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبتة، لا أدري أي هذه أم لا، فلم يأذن له" <sup>(4)</sup>.

ويروى كل من القلقشندي والعمري عن السلطان منسى موسى بعدم التزامه بالشرع في مسألة في الزواج لفهمه السطحي للدين الإسلامي وإتباع تقليد قديم في هذا المجال فذكر: "من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء قدمها له أمة موطوءة، فيمكلمها بغير تزويج مثل ملك اليمن وقد سأل ابن الأمير حاجب السلطان موسى في ذلك، وقال له: إن مثل هذا لا يجوز لمسلم شرعا ولانقلان، فقال موسى: ولا للملوك؟ إجابته: ولا للملوك وسل العلماء فقال الملك: والله ما كنت أعلم" <sup>(5)</sup>.

ونظرا للمكانة التي كان تتمتع بها الجاليات العربية والبربرية في منطقة السودان، فقد كان التجار والفقهاء منهم يتزوجون بنات الملوك والأثرياء وذوي الجاه في المنطقة، فنتج عن ذلك من مصاهرة

(1) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق، ج2 -ص159-160، مارمول: المصدر السابق، ج3 -ص196.

-الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص46.

(2) - هوبيرد يشان: الديانات في إفريقيا السوداء-ترجمة أحمد صادق حمدي، راجعه محمد عبد الله دراز-دار الكتب المصرية-القاهرة-1956-ص144.

(3) - ابن بطوطة: المصدر السابق، -ص687

(4) - ابن بطوطة: المصدر نفسه، -ص688.

(5) - العمري: المصدر السابق - ج4 - ص65، القلقشندي: المصدر السابق، ج5 -ص285.

واختلاط بين العرب والبربر وأهل السودان، وظهر جيل جديد هجين وتغيرت ألوان أبناء الجاليات العربية والبربرية نتيجة هذه المصاهرة والاختلاط والزواج<sup>(1)</sup>.

ويذكر حسن الوزان أنه لما زار المنطقة قام الإسقيا محمد الكبير بتزويج اثنين من بناته لتاجرين وافدين من المنطقة إذ قال: "... والسكان أغنياء مترفون، ولا سيما الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك الحالي (يقصد به الإسقيا محمد الكبير) زوج اثنين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما"<sup>(2)</sup>.

وذكر كعت التنيكتي أن الشريف أحمد الصقيلي تزوج في تنيكت من إمرة مغربية مقيمة في المنطقة تدعى زينب وأنجب منها: مزوارا ومحمدا وسليمان ورقية ونيبت<sup>(3)</sup>.

وتختلف عادات الزواج في منطقة السودان الأوسط والغربي من منطقة لأخرى وإن اشتركت في بعض الجوانب، ونتيجة لأثر الإسلام، كان يغلب على الزواج الطابع الإسلامي، حيث يتقدم العريس وشخصيته محسوبة من أبيها فإذا وافق أكمل الفرح، وقد فصّح عن ذلك العالم المصلي المغربي الذي أراد خطبة بنت الفقيه محمود<sup>(4)</sup>، وبما أن الإسلام لم يحدد صداق المرأة وإن كان لا يمنع أن يكون خاتما من حديد إلا أن الناس كانوا يبالغون في الصداق<sup>(5)</sup>.

فالمهر عند طبقة النبلاء عادة ما يكون من ستة إلى تسعة من الإبل مع أشياء أخرى مصاحبة للمهر متمثلة في سلاسل وحلي للعروس أما بقية الطبقات فإن مهر العامة رأسان من الماعز ونحوه<sup>(6)</sup>.

#### 5-الاحتفال بالمناسبات الدينية:

كانت الاحتفالات الدينية قبل انتشار الإسلام لها طابع وثني، ولكن طقوس وشعائر الوثنية استمرت بعد ذلك في أجزاء كثيرة من السودان الأوسط والغربي، ورغم أن معظم السكان قد اعتنقوا الإسلام ويصف محمد بلو صاحب كتاب انفاق الميسور هذه الوضعية حيث يقول بأنه تحصل على مراسلات تذكran رؤساء برنو يركبون إلى أماكن معينة حيث يقومون بذبح الذبائح، وتقديمها قرابين لآلهة وثنية قديمة وأنهم يصبون دماء هذه الضحايا على أبواب مدنهم وأن بقصور هؤلاء الرؤساء ثعابين وزواحف أخرى يقدمون لها القرابين، ويقومون بطقوس معينة نحو الانهار التي تجري في بلادهم، كما كان يفعل المصريون في جاهليتهم، ولهم أعياد خاصة لا يحضرها، إلا كهنتهم، ثم أنهم يبررون هذه الأعمال بأنها مجرد صدقات لجلب البركة، ودفع الضرر والشر، وإن لم يفعلوا ذلك أصابهم القحط والضعف<sup>(7)</sup>.

(1) - أمطير سعد غيث: المرجع السابق، -ص377.

(2) - حسن بن محمد الوزان: المصدر السابق، ج2- ص166.

(3) - كعت: المصدر السابق، -ص223.

(4) - السعدي: المصدر السابق، -ص31، الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص50.

(5) - جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق -ص317.

(6) - أحمد بايير الأرواني: جواهر الحسان في اخبار السودان -مخطوطة -ورقة15.

(7) - محمد بلو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور-إدارة الوثائق والمكتبات لوزارة الأوقاف القاهرة-1383هـ/1964م،

و حرصت الجالية الإسلامية من عرب وبربر، تجار وفقهاء وعامة، على القيام بالاحتفالات الدينية الشرعية وإبرازها خاصة رمضان المعظم وعيد الفطر وعيد الأضحى وساهموا في نقلها إلى المجتمعات السودانية التي عاشوا بها<sup>(1)</sup>.

أ- شهر رمضان المبارك:

كانت الجالية الإسلامية ومنها المغاربية المقيمة ببلاد السودان الأوسط والغربي حريصة على إحياء ليالي رمضان الثلاثين بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء، والإكثار من الصدقات خاصة أمام أبواب المساجد وتوزيع بعض المأكولات على المحتاجين مثل الحبوب والتمر وقطع الخبز والحساء، يذكر كعت التنيكتي وكان: "قاضيها في شهر رمضان من كل عام على عاداتهم القديمة بصدقاته وهديته ويفرقها عليهم وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة أي القدح الكبير ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلونها وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم..."<sup>(2)</sup>.

وقبل هذا العهد، وأثناء حكم مملكة مالي كان من عادة الملوك في شهر رمضان أن يحضر أمراء السلطان إلى قصره ليفطروا معه، ولكن على كل أمير أن يحضر طعامه معه من منزله<sup>(3)</sup>، ولا حظ والي مصر على السلطان منسى موسى أثناء إقامته بالقاهرة أنه لا يأكل إلا منفرداً وحيداً<sup>(4)</sup>، وهي عادات وتقاليد تعجب لها ابن بطوطة واعتبرها من العادات السيئة التي توجد بمالي<sup>(5)</sup>.

وكان الأهالي في السودان يحتفلون بهذا الشهر بتحضير شتى أصناف الأطعمة والحلوى ويكثرون من العبادة وفعل الخير، والتردد على المساجد لأداء الصلاة في أوقاتها منها صلاة التراويح وصلاة الفجر، ويزور بعضهم البعض في لياليه، ويكثرون من تلاوة القرآن الكريم وقراءة كتاب الشفا للقاضي عياض في مدن جني وتنيكت وجاو، وأقدر<sup>(6)</sup>.

ويذكر السعدي أن المغاربة من تافيلالت كانوا يأتون للاعتكاف بالمسجد الأعظم<sup>(7)</sup>.

ب- الاحتفال بعيد الفطر والأضحى

من المظاهر الإسلامية التي انتشرت في السودان الأوسط والغربي الاحتفال بعيد الفطر والأضحى مما يؤكد التزام سكان هذه المناطق بالعقيدة الإسلامية وتأثرهم بالجاليات الإسلامية التي وفدت إلى بلادهم.

ص34، إبراهيم علي طرخان: امبراطورية برنو الإسلامية -ص78.

(1) - محمد عبلة سلطان: المرجع السابق -ص210.

(2) - كعت: المصدر السابق-ص180.

(3) - ابن بطوطة: المصدر السابق-ص691.

(4) - العمري: المصدر السابق - ج4 - ص 69 القلقشندي: المصدر السابق، ج3 -ص289، إبراهيم علي طرخان:

دولة مالي الإسلامية -ص162.

(5) - ابن بطوطة: المصدر السابق،،-ص691.

(6) - الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري -ص82.

(7) - السعدي: المصدر السابق،-ص60.

وأهتم سكان مالي اهتماما كبيرا بالأعياد الدينية حيث شارك ملوكهم وأفراد الأسرة الحاكمة في مثل هذه الأعياد، فكان إذا حضر يوم العيد فإن الناس يخرجون إلى المصلى مرتين بالملابس البيضاء الجميلة<sup>(1)</sup>. وأعطى ابن بطوطة وصفا دقيقا بالاحتفالات التي تقام يوم عيد الفطر وعيد الأضحى حيث كان حاضرا خلال هذه الاحتفالات فيقول: «ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البني، وتأتي السلاحدية راية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس والبلور».

ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب وفي أيديهم حلة من الفضة تشبه ركاب السرج، ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي "دونما" الترجمان بنسائه الأربع وجواربه، رهن نحو مائة، عليهم الملابس الحسان، وعلى رؤوسهن عصابات الذهب والفضة، فيما تفافخ ذهب وفضة، وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي قصب، وتحتها قريعات، ويغني بشعر يمدح فيه السلطان ويذكر غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه، ويلعبن بالقسي، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانهم عليهم جباب الملف الحمر، وفي رؤوسهم الشواشي البيض (جمع شاش) وكل واحد فيهم متقلد طبله يضربه، ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتنقلون في الهواء، كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا، بالسيف لعبا بديعا، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان، فيؤتي بصره فيها متنا مثقال من التبر ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية... فيتزعون في قسمهم شكرا للسلطان، وبالغد يعطي كل واحد منهم "لدوغا" عطاء على قدره"<sup>(2)</sup>.

وكان يحضر هذا الحفل الشعراء الذين يعرفون (بالجلاد) مرتدين صورا تشبه طير الشقشاق ويربطونها إلى بطونهم ويتكلمون بالشعر أمام السلطان وهو عبارة عن وعظ وإرشاد له بأن يذكره بمن كان جالسا قبله على سدة الحكم وعلى هذا المقعد الذي يجلس عليه هو النوم، فيعدون أعمال أسلافه السابقين من مآثر حسنة، وينصحونه بالتحلي بالأعمال الطيبة حتى يذكر بها بعد مفارقة الدنيا.

وبعد الانتهاء من الوعظ والإرشاد يقوم كبير الشعراء ويصعد على درج المقعد المعروف بالبني الذي يجلس عليه السلطان ويضع رأسه في حجر السلطان، ومن بعد يصعد إلى أعلى المقعد فيضع رأسه مبتدأ بكتف السلطان الأيمن ثم الأيسر، وفي هذه الفترة تتلكم بلغتهم ومن بعد ينزل ويأخذ مكانة<sup>(3)</sup>.

(1) - الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري-ص86.

(2) - ابن بطوطة: المصدر السابق-ص686-687، إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية -ص161.

(3) - ابن بطوطة: المصدر السابق-ص686.



وأستقبح ابن بطوطة طريقة مدح السلطان واعتبر هذه الأفعال كانت موجودة قبل مجيء الإسلام واستمرت بعد، انتشاره<sup>(1)</sup>، ومن الملاحظ أن في يوم العيد يقوم الفقهاء والعلماء بإسداء النصح للحكام وهي من العادات المستحبة<sup>(2)</sup>.

ومن خلال ما عرض أن هذه المظاهر والمراسيم الاحتفالية تشبه ما يفعله ملوك وسلطين الدول الإسلامية، مما يدل على تأثر سكان السودان بما جاءت به الجالية الإسلامية من عرب وبربر إلى بلدانهم منها طريقة وأسلوب الاحتفال.

وفي مملكة سنغاي كان الاحتفال بعيد الفطر يبدأ منذ الليلة السابقة له، حيث يتم مراقبة الهلال، وبمجرد التأكد من رؤيته يقصد العدول من الرجال دار السلطان أو القاضي للإدلاء بشهادة رؤية الهلال، ويتم الإعلان عن رؤية هلال العيد بإطلاق طلقات من مدافع وضعت في تنبكت خصصت لهذا الغرض، ونقلت هذه العادة من بلاد المغرب<sup>(3)</sup>.

ويذكر السعدي في ليلة العيد يقضي الناس جزءا من ليلهم في سمر ويطلقون السمر وقد يسمع الغناء في بعض البيوت أيضا، أما في بقية الليالي، فإن كبار التجار والملاي والفقهاء يسهرون حتى وقت متأخر في الليل، وكثيرا ما يجد المار في الشوارع أناسا يسهرون وقد أخذوا أمكنة جلوسهم على الأرصفة<sup>(4)</sup>.

وفي عيد الأضحى المبارك تطلق المدافع ليلة عيد الأضحى من أبراج قصبية تنبكت كما كان يحدث في جميع مدن المغرب، فعيد الأضحى له وقع على تقوى أبناء المنطقة، حيث يخرجون للمصلي لأداء صلاة العيد<sup>(5)</sup>. وكان في هذا اليوم يخرج الحاكم في موكبه الرسمي ممتطيا جواده وحوله رجال الدولة وقادة الجند وحملة الأعلام وأرباب الموسيقى وتذبح أضحيتنا العيد الخاصتان بالحاكم والقاضي ويحملان إلى المدينة على ظهر الحياض السريعة، وتقام ألعاب الفروسية وتصبح الموسيقى في الطرقات وتخرج الناس لمشاهدة تلك الألعاب بملابسهم الجديدة<sup>(6)</sup>.

أما في مملكة كانم-برنو يذكر كل من العمري والقلقشندي أن الملك لا يراه أحد إلى يوم العيدين بكرة وعند العصر، أما في سائر السنة فلا يكلمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب<sup>(7)</sup>.

(1) - ابن بطوطة: المصدر نفسه -ص688-691.

(2) - الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية -ص87.

(3) - الفشتالي: المصدر السابق-ص264، مطير سعد غيث: المرجع السابق -ص83.

(4) - السعدي: المصدر السابق-ص21-30-43، عبد القادر زبانية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين -ص127.

(5) - كعت: المصدر السابق -ص64، الفشتالي: المصدر السابق-ص264، محمد الغربي: المرجع السابق -ص620.

(6) - مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان. نشره هوداس. باريس. 1966-ص140، أمطير سعد

غيث: المرجع السابق-ص380، الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية-ص84.

(7) - العمري: المصدر السابق - ج4 - ص53، القلقشندي: المصدر السابق -ج5-ص271، إبراهيم علي

طرخان: إمبراطورية برنو الإسلامية -ص156.

ومن خلال ما عرض يتبين لنا أن المغاربة من عرب وبربر نقلوا إلى بلاد السودان كيفية الاحتفال بيوم العيد ومظاهر الفرح بهذا اليوم، والتي كانت تشبه كثيرا ما يحدث في المغرب فيما عدا بعض الاختلافات القليلة، وقد استمرت بعض العادات الوثنية والأعياد القديمة رغم، انتشار الإسلام وهذا ما لاحظته الرحالة والجغرافيين العرب مثل ابن بطوطة والعمرى وغيرها.

#### ج. الاحتفالات بالمولد النبوي :

كان سكان السودان الأوسط والغربي يحتفلون بالمولد النبوي الشريف، وهو من المناسبات الدينية بعد انتشار الإسلام، وكان للجاليات العربية والبربرية فضل كبير في نقل مظاهر وكيفية الاحتفال إلى المنطقة خاصة في المدن الكبرى مثل تنبكت وجني، فقد كان الناس يخرجون ليلة المولد النبوي إلى الشوارع ويمدحون الرسول (صلى الله عليه وسلم)

ويزينون المساجد، ويخرج الناس رجالا ونساء ومعهم حرائرهم وأماءهم ويرتدون أبهى ملابسهم وزينتهم، وتكون حلقات لمديح أمام أبواب المساجد ويمكثون إلى الثلث الأخير من الليل أي إلى صلاة الصبح<sup>(1)</sup>. وورد عند السعدي أن الشيخ أب القاسم التواتي الذي كان من أكابر علماء تواب الذين سكنوا مدينة تنبكت وعمل إماما في جامعها الكبير حتى وفاته سنة 935هـ/1528م كان يتولى إطعام المداحين لشدة محبته لمديح النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(2)</sup>. وقد يكون أول من بدأ الاحتفال بالمولد النبوي في تنبكت<sup>(3)</sup>.

#### د. عادات الدفن:

وبجانب المناسبات الدينية انتشرت في بلاد السودان كثير من العادات والتقاليد الإسلامية في المجتمع السوداني منها طريقة الدفن.

فمن عادات الدفن في العهد الوثني، دفن الملك ومعه خدمه والمقربون إليه من خدمه، فضلا عن طعامه وشرابه وحليه، ونقل البكري وصفا دقيقا لمراسيم دفن ملوك غانة الوثنية<sup>(4)</sup>. وهي الطريقة التي التي تشبه كثيرا طريقة المصريين القدماء في دفن ملوكهم<sup>(5)</sup>.

وبدخول المغاربة من عرب وبربر انتشر الإسلام في السودان الأوسط والغربي وانتقلت إلى المنطقة المراسيم الإسلامية في الدفن.

فعندما يموت الشخص فإنهم يغسلونه ويكفونونه بقماش سوسي، إذا كان من الطبقات الرفيعة، ويصلي عليه مجموعة من المسلمين يتقدمهم الإمام، ويدفن في المقبرة التي توجد في العادة خارج المسجد من جهة اليمين، ليس لهم وقت محدد للدفن، فقد يدفن الميت في الليل أو في الضحى. فقد

(1) - الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري، ص85.

(2) - السعدي: المصدر السابق-ص59.

(3) - مطير سعد غيث: المرجع السابق-ص380.

(4) - البكري:المصدر السابق-ص175-176.

(5) - إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية -ص81.

صلى الفقيه محمد بغيغ الونكري على الشيخ بابا أحمد الشريف في الليل حيث دفن بعد صلاة العشاء<sup>(1)</sup>.

. الخاتمة :

مما ذكر نستنتج أن للإسلام والجاليات المغاربية من عرب وبربر أثر واضح في تغيير كثير من العادات والتقاليد السودانية في الملبس والمسكن والمأكل والزواج والاحتفالات الدينية. وانتشرت بين أهل السودان الأزياء المغربية من الأقمشة والسرراويل والبرانس والألبسة الحريرية والقطنية ، وأصبحوا يتأنقون في ارتداء الملابس متشبهين بأهل المغرب . كما تطور أسلوب وفن البناء المعماري فتنفخوا في بناء المساجد والقصور والمنازل، فأدخلوا نظام الأقواس والقباب وامتازت بناياتهم بالاتساع والنظافة وزينت الجدران بالآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى . وتقيدوا في احتفالاتهم بما ورد في الشريعة الإسلامية ، فاهتموا بقدوم رمضان وعبروا عن ابتهاجهم في الأعياد الإسلامية منها عيدي الفطر والأضحى. وغيروا كثير من عاداتهم وتقاليدهم الوثنية في مجال تربية الأطفال أو مجال دفن الموتى. وتبين أن سكان السودان لم يكونوا كما هو شائع عنهم بأنهم همجا ومتوحشين خاصة عند الكتاب والمؤرخين الأوروبيين. فقد كانت لهم حضارة راقية مزجت بين الشريعة الإسلامية والعادات والتقاليد المحلية.

والملاحظ رغم أن الإسلام كان دين أغلبية السكان في المنطقة إلا أن بعض المظاهر السيئة التي ترجع للعهد الوثني استمرت في التواجد. وأشار إليها بعض الرحالة والعلماء والفقهاء المسلمين الذين حاولوا التصدي لها منهم المغيلي، والسيوطي، ومحمد بلو وغيرهم.

(1) - السعدي: المصدر السابق-ص56-214-218-164، كعت: المصدر السابق-ص171.

-الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري-ص92.